تاريخ النهضة الاوربية / المرحلة الثانية / شعبة ا – ب – ج – د

المحاضرة رقم ٤

عنوان المحاضرة / الاتجاهات الإصلاحية الدينية والفكر السياسي في إيطاليا

يوم الثلاثاء ٢٠٢١/١/١٢

استاذ المادة / د. ميادة قيس النصيري

في مستهل المحاضرة يجدر بنا القول، من أن حركة الإصلاح الديني التي انطلقت من أوروبا، قد توضّحت معالمها، واشتد عودها في القرن السادس عشر الميلادي، في عصر النهضة فتجلّى العالم المسيحي بعد بروز الحركة بثوب الانقسام الديني، تمثل الانقسام بالبروتستانت كمذهب إصلاحي جديد ببزوغ فروع عديدة له في أنحاء أوروبا، في مواجهة المذهب الكاثوليكي التقليدي السائد عموما في روما بإيطاليا حيث مقرّ البابوية، فجاءت حركة الإصلاح الديني بمثابة تمرّد على البابوية ورجال الدين في روما، حيث كانت إيطاليا لوجود البابوية في روما قبلة المسيحيين، لكن الانقسام شمل رجال الكنيسة أنفسهم في روما، فظهرت بابويات ادعت المرجعية خارج روما بل وحتى خارج إيطاليا، ومن ثمّ الطعن في المرجعيات الأخرى، مما أفقد البابوية هيبتها وقدسيتها، وشاعت عن رجال الكنيسة سبل الغدر والخيانة، وعمليات التآمر والاغتيال بدس السم وسواه، كل هذا حدا بعض المصلحين للتنادي بإصلاح الكنيسة، وجاء القدح والذم بالقائمين عليها، ورأوا أن بعض طقوسها بدعة لا يمت إلى الدين الذي بشّر به السيد المسيح عليه السلام بشيء..

بمجرد الكلام عن حركة الإصلاح الديني لا بد أن يقفز إلى ذاكرتنا شخصية الراهب مارتن لوثر (١٤٨٣– ١٥٤٦) كمصلح ديني ذائع الصيت، اقترن اسمه بحركة الإصلاح فهو مؤسس المذهب البروتستانتي، ومارتن لوثر وسواه من المصلحين دعوا رجال الدين إلى الخلق القويم، وانتقدوا رجال الكنيسة لانصرافهم لجمع الثروة وإلى الحياة اللاهية الماجنة، وهاجموا حياة الرهبنة باعتبارها حياة ذل واستكانة، وتساءل مارتن لوثر عمّا يمنع هؤلاء من الزواج، ومارتن لوثر نفسه وكسرا للقاعدة السارية كونه راهبا بادر إلى الزواج من راهبة تدعى كاترين بورا..

اذن من خلال ما تقدم دخلت تغيرات عميقة إلى المجتمع الأوروبي وبخاصة إيطاليا نتيجة للنهضة فقد طغت سمة تقديس الجمال والتمتع بملذات الحياة الدنيوية في المجتمع الإيطالي. وسما مركز المرأة وتعددت نشاطاتها فعملت على دراسة الفلسفة والموسيقى والغناء والرقص والدراسات القديمة. وقد شهد المجتمع استهانة بالآداب العامة وخروج عن العادات والتقاليد، وانتشر الفساد والإجرام، وتمثل الانهيار الخلقي بصورة واضحة في حياة البابوات منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث انصرفوا عن الأمور الدينية إلى الأمور الدنيوية

واهتموا بالشئون السياسية والحكم. وقد امتلأ المجتمع الإيطالي بالمتناقضات فقد وجد العلماء والأساتذة والفنانون في الوقت الذي كان المجتمع فريسة للفساد السياسي وللانحطاط_الأخلاقي. وكان لهذا الترخي الخلقي رد فعل ضد النهضة مثله عدد قليل ممن تمسكوا بالفضيلة. فظهر عدد من المصلحين يمكن تقسيمهم إلى اتجاهين إصلاحيين رئيسيين، يرمي الاتجاه الأول منهما إلى إصلاح المجتمع على أساس التعاليم الدينية وقد مثله جيرولا سافونا رولا ١٤٥٢ – ١٤٩٨م، أما الاتجاه الثاني فقد كان يهدف إلى إصلاح المجتمع دون التقيد بالأمور الدينية والأخلاقية وقد مثل هذا الاتجاه نيقولا مكيافللي .

أولاً : حركة سافونا رولا :

يموج عصر النهضة في أوروبا بتيارات التناقض العنيف بين قديم متخلف يتمسك بأهداب الماضي ويتسلح بكهنوت الدين، وبين حديث متقدم يستشرف المستقبل ويتسلح بمنطق العِلم، وقد استغرق ذلك التناقض العنيف والصراع نحو ثلاثة قرون. كانت البداية للإصلاح من داخل الكنيسة وعلى يد راهب كاثوليكي ومصلح ديني منغلق على نفسه، وفي نفس الوقت معادي للعلم ومنهجه بنفس حماس معاداته لفساد الكنيسة، ومع ذلك كان مصيره الحرق ذلك هو الراهب جيرولامو سافونارولا، وبعدها بمائة عام يأتي مصلح ديني آخر لكنه في هذه المرة رجل مستنير ومؤيد للعلم ومنهجه، ومُعارض للكاثوليكية فكان من الطبيعي أن يلحق سابقه بالموت حرقاً ذلك هو جوردانو برونو، أما الثالث الذي كان على شفا المحرقة فهو العالم الجليل جاليليو جاليلي، الذي عاصر حرق برونو وحاول أن يجد صيغة يتعايش فيها مع العِلم دون استثارة الكنيسة، فعندما رفع شعار العِلم كان حريصاً أن لا يرفع بجواره شعار معاداة الكنيسة، ورغم ذلك حكمت عليه محكمة التفتيش بالسجن ، وبحرق مؤلفاته التي يؤيد فيها نظرية كوبرنيكس القائلة بدوران الأرض. ثم نأتي لنيكولاس كوبرنيكس الذي أفلت من الموت حرقاً على الرغم من أن هناك من أحرقوا فعلاً بسبب الترويج لآرائه ونظرياته.

يُعَد جيرولامو سافونارولا أحد ضحايا محاكم التفتيش من داخل المؤسسة الدينية في عصر النهضة، فإدانته من قِبَلّ هذه المحاكم لم يكن بسبب آرائه المستنيرة لما عُرِفَ بالمذهب الإنساني "الهيومانيزم" حيث كان مُعارضاً شديداً لهذا المذهب، بل كان بسبب احتجاجه على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وممارسات باباواتها وكرادلتها خاصة زمن البابا بوتشنتو الثامن، والبابا الكسندر السادس. ومن ثم فهو ليس أحد دُعاة التنوير العِلمي في هذا العصر، بل كان أحد دُعاة التشدد في نبذ مباهج الحياة الدنيا والعمل من أجل الحياة الآخرة. فبنفس الشِدة التي هاجم فيها الكنيسة لاهتمامها بالطقوس والشعائر أكثر من اهتمامها بالروحانيات والتمسك بتعاليم الإنجيل هاجم أيضاً المهتمين بالعلوم والآداب والفنون الدنيوية. كما أنه كان من أشد معارضي القومية الإيطالية، أي ضد الوحدة الإيطالية حيث كان مع الوحدة المسيحية التي عمل باباوات روما على إقامتها من

عهد جريجوري السابع الذي تولى لفترة اثني عشر عاماً (١٠٧٣- ١٠٨٥م) حتى عهد بنيفاس الثامن الذي تولى لفترة تسعة أعوام (١٢٩٤- ١٣٠٣م). وترجع أهمية شخصية هذا الراهب إلى أنه جاء في زمن جمع بين تجاوز كنيسة روما لكل حدود المعقول، وبين حركة التنوير في فلورنسا عاصمة توسكانيا تحت رعاية لورانزو دي مدتشي، كما أن آراؤه المتُشددة ظلّت نبراساً لعدد كبير من المريدين بعد ذلك، ورغم أنه كان ينادي بالإصلاح من داخل الكنيسة وضد الانفصال والتشرذم الكنسي المسيحي جاءت الدعوة البروتستنتية بعد موته بنحو عشرون عاماً فقط وتؤسس كنيستها المستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية.

ثانياً : مكيافللي ١٤٦٩ – ١٥٢٧م

ولد مكيافللي في فلورنسا ، ينتمي أبوه إلى طبقة النبلاء القدماء في فلورنسا. كان محامياً متوسط الثراء، إلا أنه لم يتلق تعليماً واسعاً. وقد تمكن مكيافللي من التوصل إلى منصب أحد كتاب الحكومة الفلورنسية في عام ١٤٩٦م وبقي فيه حتى عام ١٥١٢م، حيث عادت أسرة مدتشي إلى السلطة. اطلع مكيافللي على الثقافات القديمة وألم بأحوال المجتمعات الأوروبية. شكل كتابه (الأمير) خلاصة تجاربه السياسية ومعارفه التاريخية. فقد تألم كثيراً وهو يشهد تمزق إيطاليا وانقسامها وتنافس أمرائها واعتمادها على الجند المرتزقة في حماية نفسها. سعى مكيافللي لدى الفلاسفة والمؤرخين اليونان والرومان مفتشاً عن علاج لآلام إيطاليا التي لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها وتحقيق وحدتها. فسخر من البابوية والإمبراطورية. وأبدى إعجابه بالجمهورية الرومانية وبنظامها الديمقراطي وبجيشها الوطني. وقد رأى أن خلاص إيطاليا سيتحقق بوحدتها. وقد دفعته واقعيته إلى الحكم بأن تحقيق جمهورية إيطاليا صعب المنال بل إنه مستحيل، لذلك فإن إيطاليا بحاجة إلى منقذ ولا ضير أن يكون أميراً يتمتع بسلطات ديكتاتورية مستخدماً ما يراه مناسباً من الوسائل أكانت أخلاقية أو منافية للأخلاق في سبيل تحقيق هذه الغاية السامية. ومن هنا جاءت مكيافلليه في أصولها لتجسد مبدأ الغاية تبرر الوسيلة. لذا فقد أعفت المكيافللية رجال الدولة من قيود الأخلاق التي تطبق على الناس العاديين، بل وطلبت منهم ارتكاب أعمال العنف والخداع والغش والشدة من أجل مصلحة بلادهم. ويمكن تلخيص أهم المبادئ التي تقوم عليها فلسفة مكيافللي السياسية في نقاط عديدة أهمها :

١- إن الإنسان ولد خبيثاً وأنه لا يقبل الخير إلا إذا اضطر إلى ذلك وبناءً على ذلك فإنه لا يمكن الاعتماد على الطبيعة الإنسانية وحدها من أجل إصلاح نفسها لأنه لا يمكن التغلب على الشر إلا بكبحه والضغط عليه.

٢- إن على كل حاكم يتطلع إلى السلطة المطلقة لا بد أن يرحب بالفلسفة القائلة (إن فشل الحاكم هو الجريمة التي لا تغتفر). لذا يجب على الحاكم أن يقوم بتكييف أخلاقه بحسب الظروف وأن يتحرر من القيود الأخلاقية المقررة كذلك لأن ذلك التحرر يعتبر ضرورة يقتضيها الصالح العام.

٣- إن القوة هي أساس نجاح الحكام، وإن اللجوء إلى الحرب من وقت لآخر هو ضرورة من أجل المحافظة على كيان الدولة، لأن السلام الدائم يؤدي إلى ضعف أبناء الدولة بينما يؤدي الخطر والخوف إلى اتحادهم وتماسكهم، لذلك لا بد من تأسيس جيش وطني في حكومة أمير قادر على تنظيم وقيادة جنوده، ومن ثم استخدام هؤلاء الجنود في الدفاع عن البلاد والحفاظ على وحدتها الوطنية.

٤- على الرغم من إعجاب مكيافللي بالمستبد القوي، إلا أنه كان يعجب بالشعب الحر الذي يحكم نفسه بنفسه. وبما أنه معجب بهذين النوعين المتناقضين فقد أوصى بإقامة الحكم المستبد في حالتين: الأولى في حالة إنشاء دولة لأنه بعد تأسيس الدولة لا بد من أجل ضمان استمرارها من أن يسمح للناس بنصيب في الحكم، ولا بد للحاكم عندئذ أن يدير شئون الدولة وفقاً للقانون وأن للحاكم عندئذ أن يدير شئون الدولة وفقاً للقانون وأن يراعي حقوق رعاياه أيضاً. أما الحالة الثانية التي يجب إقامة حكم استبدادي فهي إصلاح دولة فاسدة، حيث رأي مكيافللي أن العنف السياسي هو الدواء السياسي القوي الذي لا بد من استخدامه في الدولة الفاسدة. إلا أن هذا الدواء كالسم لذا يجب استخدامه بحذر شديد.

عدّ بعض المؤرخين بأن مكيافللي عبر عن الآراء التي كانت سائدة في عصره وشرح المسائل السياسية التي استخدمت لتنفيذ السياسات آنذاك وأنه لم يبتدع شيئاً جديداً، كما أن كتابه الأمير، يمثل وثيقة تاريخية تبين الأخلاق السياسية في إيطاليا في أوائل القرن السادس عشر أكثر منه عملاً مثالياً شبيهاً بجمهورية أفلاطون أو يوتوبيا لتوماس مور، إلا أن ذلك لا يلغي الأثر الذي أحدثه هذا الكتاب في تاريخ العالم وأوروبا في المائتين والخمسين عاماً التي أعقبت وفاة مكيافللي. كانت إما خاضعة للمكيافللية أو ثائرة عليها. وفي رأي بعض المؤرخين فإن الأثر الذي تركه كتاب مكيافللي (الأمير) يضاهي ما تركه كتاب جان جاك روسو (العقد الاجتماعي) من أثر.

وقد اتبع مبادئ مكيافللي كل من كاترين دومديتشي زوجة هنري الثاني ملك فرنسا التي وقعت في أيامها مذبحة سان بارتلمي، حيث تم قتل عدد كبير من البروتستانت الفرنسيين. كما سار وفقاً لهذه المبادئ كل من

ريشيليو ولويس الرابع عشر وهنري الثامن والملكة اليزابيت وفريدريك الأكبر و بسمارك وكذلك تمثلت هذه المبادئ بشخصية نابليون.

سؤال/// تعد حركة الاصلاح الديني التي ظهرت في اوربا من القرن السادس عشر مرحلة جديدة في تغير المجتمع الاوربي وضح ذلك مبينا الاسس التي اعتمدت عليها ، واهم شخصياتها؟